

الزيارة شملت الريف الفرنسي وغابة بولونيا والتجول بين الحدائق

## وداعاً باريس 16



صورة لقرنوس النصر العظيم

الا الصمت. قررت الذهاب لهذا المكان بغرض الاستكشاف، لكنني تراجعت عن ذلك القرار، خوفاً من الجهول، فلا تدري لعل ذلك المكان به حيوانات مفترسة.

هل تعرف طبيب تخدير؟

إنه ذلك الطبيب الذي ستجلس معه قبل المنظار لمعرفة بعض المعلومات عنك كالوزن والطول، وهل تدخن أم لا؟ وهل بك سكري أو ضغط؟ وهل جرا، رغم أن منظار الذي سأفعله يعتبر مجرد فحص داخلي في الجسم، لذلك يستحق هذا الاهتمام. دعني أخبرك أنني في الكويت، فعلت ذلك المنظار أكثر من مرة، وفي كل مرة كنت اتوكل على الله وأنا على سرير المنظار دون أن يراني طبيب تخدير لكن - بسبب الاهتمام بالمرضى في باريس - فإن للتخدير طبيباً، وعلى أن تراجع قبل العملية، في القانون عندهم، إذا لم يرك ذلك الطبيب قبل

فكان حجم الغناء عليه كثيفاً مما جعله - ربما أقول - يهرب ضاحكاً، أحب الناس المتواضعين الذين يخجلون من الغناء، جاء مجدداً بعد ذهابه، وقال هيا بسرعة فلنلتقط صورة. التقطت معه صورة، وسلمت عليه وذهب. ما زلت احتفظ بتلك الصورة، وما زالت ذاكرتي رطبة لذلك اللقاء الذي كان عنوانه الابتسام.

قال الطبيب: هيا محمد، تفضل، الآن نفحص لك المرارة. وفحص الطبيب المرارة عبر جهاز حديث، بوضع جل سائل على منقطة البطن، ويمر الجهاز عليه بطريقة لطيفة، بعد الفحص بدقائق، جاءت النتيجة الإيجابية أن قم يا محمد فانت سليم معافى بفضل الله.

في أحضان غابة بولونيا!

بعد ذلك الموعد، انطلقنا إلى غابة بولونيا، تلك الغابة الكبيرة، ويبدو لي أنها على شكل دائري. في وسط تلك الغابة بحيرة لطيفة بها بجع أو بسط. قبيل المغرب، وقفنا أمام تلك الغابة. نزلنا وامضينا بعض الوقت نمشي في أرجائها، شاهدت عجوزاً واقفة على أحد أطراف الغابة، ويدها بعض الأكل للبط.

قامت ترمي بعض الأكل للبط، وبدأت تلك البطات بالاقتراب منها والنهام الأكل اللذيذ جلسنا نشاهدها بهدوء وتأمل. نظقت العجوز متحدثاً الينا عن تلك البطات، وعن الأمر الذي تفعله هنا، ولا شك أنك أنت تعلم أيها القارئ أننا لم نفهم شيئاً مما تقول، فهي تتحدث بلهجة فرنسية غير واضحة (حتى لو كانت واضحة فقل نفهم) ولكن.. هل تظن أننا قلنا لها لم نفهم؟ لن نقول ذلك، لأن العجوز لا تريد منا الفهم، ولكنها تريد أن يستمع إليها أحد ويصغي. اصغيتا إليها، وهز أبي رأسه معرباً عن فهمه. استغربت فقلت لأبي:

«هل فهمت؟» قال: «لا، ولكن هز معي رأسك واستمع بالمشهد»، واقتنعت - حينها - بوجهة نظره فهزرت أنا الآخر رأسي مدعياً الفهم.

بعد ذلك اللقاء المضحك الغريب، ركضت في الحديقة بهدوء، وأنا أتفلسف بمقم من أنفي الهواء المنعش. ثم وقفت بين شجرتين عظيمتين، ومن خلفي البحيرة، فصورني أخي صورة جميلة.

ما أجمل غابة بولونيا قبيل الغروب

هل تريد الذهاب إليها؟

● تذهب مع تاكسي أو مترجم.

أو تستطيع الذهاب عبر المترو، للمحطة المسماة بـ «بور توميريت» أخرج من المحطة، وانظر نظرة خاطفة على المكان، وسوف تشاهد الغابة. قد تضطر لإحتياز شوارع صغير من روح الله الا القوم الكافرون. وأنا مسلم، ودعوت الله - بكثرة - ليزيح عني هم المرض، عندما يجتاز الشوارع بأي شكل أراد.

الغابة جميلة، وفيها جانب غريب به أشجار عالية جدا ومتداخلة. لا أجد في ذلك المكان أحدا يمشي، ولم أن

لبلتقطها ويعود بها. أنت لا تعرف تجربتي مع الكلاب، لذلك لا تستغرب إذا عرفت أنني لولا الشوق لمشاهدة هذه البحيرة، لما كنت رأيتني أغامر بالذهاب عند الكلب. اقتربت من البحيرة، نظرت إلى اللوحة الجميلة التي أمامي، وقلت: ما أروع صنع الخالق! سبحان الله ما شاء الله! بدأت أذكر الله في هذه اللحظات الإيمانية. إن الخالق قد أحسن ما خلق. من حولي الناس يجلسون، وقد يكون البعض ملحدين.. لكن هل هناك مسلمون؟ أم أنني الوحيد هنا المسلم؟ المكان ليس مشهوراً، فليس هو مقصداً سياحياً، ولعل المسلمين في هذه الضواحي قلة، لذا أظن أنني أحد القلة من الناس من وطئ هذا المكان.

عندما تكون لتوكد قد خرجت من مشكلة، فإنك ستكون حزينا جداً ان فوجئت بمشكلة جديدة.

وهذا كان شعوري عندما ذهبت للموعد الخاص لفحص المرارة، وما إذا كانت سليمة، أم بها أمور أجهلها، دعوت الله أن أكون طيباً متعافياً، فإني قد تعبت من المرض، وليس بي طاقة لغيره.

في ذلك الموعد، شاهدت أحد المرضيين الأفارقة الجاملين الطبيين، ذلك المرض كان لي معه موقف، حيث إنني عندما جئت للعلاج في المرة الأولى قبل هذه المرة، عندما كان المرض متفشياً بي وكنت أتالم، كان ذلك المرض خير عون لي، ذلك المرض لم يفهم شيئاً مما أقول، ويضع يده على كتفي فيلامسني بحنان وعطف. عرفت حينها أن الحاجة العاطفية والنفسية للمريض مهمة جداً، بل إنها أحياناً أهم من العلاج العضوي، ذلك أن بعض الأمراض - كالسرطان - هو بسبب نفسي، وعلاجه ليس فقط الكيماوي، وإنما يجب أن يكون لدى المريض عزيمة وإرادة قوية، وشخصية إيجابية، من أجل النهوض ومقتل المرض. الشاهد أن ذلك المرض الطيب قد رأته مصادفة في موعد المرارة، فوقفت صارخاً لأبي: «هذا صديقنا»، فأوقفنا وتحدثنا معه. قال لي انسي أتذكر جيداً، وسألني عن حالتي، وهو كعادته مبتسم، فقلت لأبي: «أريد أن أصور معه..» أن لي معه ذكريات مهمة.. طلب أبي منه ذلك، فضحك المرض - بتواضع - وقال: «لا لا أريد أرجوك»، ثم ذهب وهو يضحك.. يبدو أنه سعيد بالخبر الذي أخبرته به، وهو قول لي انه لي أحبك وأريد أن أصور معك، فانت صديقي، ونحن عائدون من الريف، رأيت على الطرف الآخر من الطريق بحيرة في قمة الروعة، تلفت حولها الأشجار الطويلة الضخمة. نظرت إليها بنسجون: ما أحلاها! قلت لأبي أنتي أريد أن أذهب إليها فاجلس فيها قليلاً، فوافقني وذهب المترجم لها.

وقفتنا على حارة الأمان في الطريق، ونزلت مسرعاً لتلك البحيرة. كان هناك حاجز يمنعني من الوصول إليها، لكنه حاجز صغير من الخشب، ففرت واناطلقت نحو البحيرة بشوق، وجدت رجلاً يلعب مع كلبه، يرمي الكرة الصفراء بعيداً فيذهب الكلب

«شأتو»، ثم إلى «مونتيسو» حتى «سانجرما»!

من الملاحظ في البيوت هذه المناطق أنك ترى بها الفخامة، وتستشعر أن هذه المنطقة هي منطقة سكنية للأغنياء.

سألت المترجم: «من يسكن في هذه المنطقة؟» فكان الجواب واضحاً: «الأغنياء».

قال المترجم: «انظروا إلى ذلك المبنى الكبير».

قلنا: «ما أكبره! ما هذا؟» فقال: «إنه من أرقى المدارس العسكرية في فرنسا، يقدم إليها من كل فج عميق الناس ليتعلموا. «أوما يراسه أبي وتيقن بأن فرنسا - فعلاً - قوية عسكرياً، وذلك بسبب الاهتمام الواضح في السلك العسكري».

الآن.. نحن في الريف الفرنسي، بين المزروعات، وبين الأشجار الصغيرة. صحيح أننا قد أتينا إلى باريس في فصل الخريف، وأن الأرض ليست خضراء تماماً، لكن ما زالت هناك بعض النباتات لتلطف أنفاسها في هذا المكان المنعش. اقتربت من أحد النباتات فشمت رائحته الزكية. ظننت أنه «جرجير»، ونظر أبي إلى أحد النباتات الأخرى، فقال: «هذه رائحة نعناع».

تخيل أنت.. أنت في الريف الفرنسي، في مكان لا تمر به سيارات كثيرة، ليس حولك إلا الحدائق الكبيرة. الطقس بارد، وأنت في عالم جديد عليك.. هل تستشعر ذلك الانتعاش.. هل تستنشق ذلك الهواء؟ شهيق عميق تسترد من خلاله صحتك.. شهيق عميق يتبسم بسببه وتعرف معنى الاسترخاء. ما أروع هذا الريف! لن تجد أجمل من الحدائق في الحياة. إن الجلوس في الحدائق الجميلة، والتأمل في خلق الله، واستنشاق الهواء المنعش، لعمري إنها متعة ما بعدها متعة، ناهيك عن أنها نعمة يشكر الخالق عليها.

ونحن عائدون من الريف، رأيت على الطرف الآخر من الطريق بحيرة في قمة الروعة، تلفت حولها الأشجار الطويلة الضخمة. نظرت إليها بنسجون: ما أحلاها! قلت لأبي أنتي أريد أن أذهب إليها فاجلس فيها قليلاً، فوافقني وذهب المترجم لها.

وقفتنا على حارة الأمان في الطريق، ونزلت مسرعاً لتلك البحيرة. كان هناك حاجز يمنعني من الوصول إليها، لكنه حاجز صغير من الخشب، ففرت واناطلقت نحو البحيرة بشوق، وجدت رجلاً يلعب مع كلبه، يرمي الكرة الصفراء بعيداً فيذهب الكلب

الريف الفرنسي

حدائق نشاعة

وهواء منعش ومتعة

واسترخاء

غابة بولونيا على

شكل دائري

يتوسطها بحيرة

صغيرة ومليئة

بالأشجار العالية

والمتمدخلة

هذا يوم الجمعة! يوم خرجنا من المنطقة التي يسكن بها باولو كويهلو الروائي المشهور. لم يسبق لنا زيارة هذا المكان، ولم نتفحصه جيداً خلال الأيام الماضية.

اتصل علينا المترجم طاهر وقال: «أين أنتم؟» قلنا: «نحن قادمون إليك.. الآن».

بقرب المسكن الجديد، والسذي هو في منطقة اللاديفنس، يقبع متخال كبير على شكل الإبهام. كان منظره غريباً، ولعل له حكاية. أيضاً في نفس المنطقة، هنالك مجموعة من المجمعات، أهمها مجمع الفصول الأربعة، أو كما يسميه بعض الكويتيين «أوشان» تفحصت هذا الاسم فوجدت أن «أوشان» عبارة عن سوبرماركت كبير به كل شيء، وهو شبيه بكارفور، ولذلك أصحابنا لأنهم لا يعرفون اسم المجمع، اطلقوا عليه هذا الاسم، وهي فكرة جميلة.

أنت قد تستعز - في باريس - بالشوق إلى الأكل الخليلجي مثل الأرز مع الدجاج أو الأرز مع اللحم، ولكنك تخاف أن يكون نبيج هذه الحيوانات غير شرعي، اليس كذلك؟ لا تخف هنالك محل بيع اللحم الحلال، يا للمتعة! ذهبتنا لذلك المحل، واشترينا الدجاج الحلال، ثم ذهبتنا للفندق. لم يكن المسكن مجرد غرفة وحمام - كرمك الله - وإنما كان غرفة وحماماً وصالة وطبخاً لذا فمن السهل أن تطبخ الأكل الذي تريد، وهذا ما حصل، وهو أمر لذيذ.

لماذا أعطيك هذا التفصيل؟ لأقدم لك نصيحة قيمة، وهي عندما تريد زيارة أوروبا لأي سبب سواء كان سبباً سياحياً أو علاجياً، فإنه يتعين عليك (بمعنى: يجب) أن تسكن في فندق يوفر لك مطبخاً لتصنع الأكل اللذيذ بيدك.

في هذا الفندق، يوجد مجلس جميل للكويتيين يجلسون به آخر الليل للتسامر وللتسلية ولإزالة وحشة الغربة. هكذا ذهب أبي مع أخي للتسامر معهم، وجلسنا أنا لآكتب لك هذه الكلمات.

□ □ □

الحادية عشرة مساءً

الآن الساعة الحادية عشرة مساءً، أجلس وحدي في الغرفة، انظر من النافذة فأشاهد القمر حزينا، ضوء الشارع خافت، استشعر الوحدة في هذه اللحظات: يا الله.. إلى أين المصير؟ هل ستكون نتيجة المنظار إيجابية؟ أم أن المرض سزال يتربع على جزء من جسدي؟ يا رب.. إنك أنت ناصري، وأنت الشافي.. ادعوك باسمك الحسن، وادعوك باسمك العظيم: يا الله.. كن بجانبني، وكن مساندي، واعني، وأرجو منك الأخبار السارة، فأني محتاج لها أيما احتياج. مرتت بايام صعبة يا رب، وأنت تعلم خفاياها، وأنت عليم حكيم، أعلم يا رب أن الألم الذي استشعره هو لي أجز، وهذا من عطفك وكرمك، وأعلم يا رب أن هذا المرض هو امتحان لي: أأصبر أم أسخط؟ وإنك لتعلم يقينا أنني صبرت صبر الجمال التي تحمل صاحبها الكوفي إلى مكة للحج، يا رب: إنني صابر ومحنتسب بان كل ما يأتي منك فهو مرحب به، وأن قدرك ماض بي شئت أو أبيت، ولذا: فأني لا أقول إلا ما يرضيك، ولا أقول إلا: إنني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين.

□ □ □

هل الريف الفرنسي جميل؟

أقصد من نومك لا تجزع.. إنه يوم الريف الفرنسي هل تعرفه؟ إنه ذلك الريف الرائع المحمد الكبير المنعش. قرنا بالأمس الذهاب إليه مع المترجم، قال المترجم أنه يعرف الريف جيدا وسوف يجعلنا نستمتع به.

حسبك ابتداء أن الريف خارج باريس، وتلك نقطة جميلة: أن تكتشف أجزاء أخرى في فرنسا.

في الطريق، مرنا على مناطق لها أسماء جميلة، إحدى المناطق اسمها «أويل موليميزو»، وأخرى نظرتنا لها من بعيد اسمها «ليزيبيلن



يمنح الله الناس المرض لكي يتفكروا في نعمه العظيمة عليهم طوال حياتهم، تلك النعم التي - ربما - لا يفقه الإنسان مدى روعتها إلا حينما يفقدوها أو يفقد بعضا منها.

في صيف عام 2010 وهبني الله بعضا من هذه المنحة (المرض)، وبسببها ذهبت إلى أطباء كثيرين لأرى ما هي المشكلة: عولجت في الكويت ابتداء، ثم لم ينجح العلاج فسافرت إلى تايلند قاصدا المستشفى الأمريكي في بانكوك، المعروف بتطوره وأسعاره المناسبة. بعد أيام من مراجعتي للمستشفى عملت منظارا للمعدة وكانت النتيجة سلبية، فقال الطبيب: ان الحل يكمن في العملية السهلة على الطبيب الصعبة على المريض إذ انه سيحتاج إلى أسابيع حتى يتماثل للشفاء، وخطم الطبيب كلامه بمقولة فاجعة: إن لم يعمل هذا المريض العملية خلال عشرين يوما، فإنه حتما سوف.. يموت.

قلت لأبي: ان طربي الأخير هو أن أعمل العملية في الكويت، ولذلك عدنا على الفور للكويت على متن أقرب طائرة، وبعد الاتصال بأحد الأطباء في مستشفى خاص وإخباره بالحالة. وبعد العملية، تم تحويلي لمستشفى الصباح لاستكمال مراحل العلاج المكثف، ولأن الأمور لم تسر على ما يرام حيث حدث تحسن لطيف في الحالة فإنني ما زلت أعاني من تبعات المرض التي استمرت لمدة 6 أشهر أعاني فيها من انسداد في الأذن عشر نتيجة قرح متعددة بالمعدة، وظلت لمدة 4 أشهر لا أستطيع الرؤية أو المشي تقريبا، ولقد كانت موافقة إدارة العلاج بالخارج على إرسالي لإجراء فحوصات والعلاج بفرنسا بمثابة طوق نجاة للخروج من الأزمة الصحية.

ما أصعب البدايات، هكذا جاءت أيامي الأولى في باريس تعيسة، إذ اني لا أستطيع أن أرى، وبالكد اسمع الناس، ولا أشعر إلا بالمقعد المتحرك الذي اجلس عليه، كانت أياما بائسة، لكن أجمل ما فيها هي أن أبي كان من يقوم على رعايتي. انتهت المرحلة الأولى من علاجي ورجعت للكويت، ثم أتيت مجددا لباريس بعد ثلاثة أشهر للفحص مجددا وكانت كلمات الطبيب أنني قد شفيت تماما من أسعد وأجمل ما سمعت، انتهت الرحلة ولكنها خلفت الكثير والكثير من المواقف التي أردت أن أشاركها مع عزيزي القارئ من خلال سردي لبعض المشاهد التي رأيتها، والأحداث التي عاصرتها، والتي استوقفتني للتأمل والتفكير. سأحدثك أنت عزيزي القارئ، سأحدثك عن الحياة في باريس: الشوارع الجميلة التي دخلتها، ومحطة المترو التي تهت فيها عن مرافقي والدي وأخي، تلك المحطة الغربية المدهشة، سأأطف لك في هذه الرحلة من كل بستان زهرة: زهرة الحكمة، زهرة التأمل، زهرة المفاجأة، زهرة البسمة، وزهرة المغامرة، ورسائل لأولئك الذين يعيشون في الخارج بهدف العلاج، أو لأولئك الذين سوف يذهبون بفضل الله إلى العلاج في الخارج.



صورة الوالد في الريف الفرنسي

هذا هو اليوم الموعد انه اليوم الذي من أجله قدما إلى باريس. اليوم موعد المنظار الذي سوف يحدد - والفضل لله - النتيجة لذلك المرض: هل رحل عنه المرض، أم مازال قابعا به؟ وكان العقل حائزا في تلك البلاد الغربية. لا أنسى أنني في ليلة الموعد، كنت أتفكر في سريري عن النتيجة، وتعمقت في التفكير حتى ارتبكت وبكيت أنا أريد الشفاء الكامل لي، وليس لدي قوة لمزيد السم. ومع هذه التفاكير، انطلق صوت التساؤل الواعي من العقل، فقال لي ميتسما: اطمئن فإن الله معك لن يتركك وحيدا. ألم يقل الله سبحانه وتعالى: (ادعوني استجب لكم)؟ بل إن الله بين أن الدعاء عبادة لله بل إن من يستكبرون عن دعاء الله قانطون لهم عذاب اليم. ذلك أنه لا يباس من روح الله الا القوم الكافرون. وأنا مسلم، ودعوت الله - بكثرة - ليزيح عني هم المرض، وليشرح صدري، ثم نمت تلك الليلة، وعلى وسادتي الدموع تساقطت...

قال الوالد حفظة الله:

محمد قم.. لقد حان الموعد.